

نشأة البابوية وتطورها

أحمد تركي الشريدة*

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في الأصول التاريخية للبابوية، وعوامل ظهورها، ومن ثم كيفية نشأتها، وتطورها تدريجياً، منذ أن دخلت الديانة المسيحية إلى أوروبا في القرن الأول الميلادي، حتى وصلت إلى مكانتها البارزة في القرن الرابع عشر الميلادي. وتبين الدراسة التطور الإداري الذي طرأ على التنظيم الكنسي، حتى وصل إلى الشكل المتعارف عليه، بعد أن تم محاكاته للنظم الإدارية الرومانية التي كانت شائعة آنذاك. كما توضح الدراسة أهم العوامل التي أدت إلى انقسام الكنيسة الرومانية إلى؛ كنيسة شرقية بيزنطية، وأخرى غربية كاثوليكية. ثم عرجت الدراسة على أهم الصراعات على السلطة الزمنية التي دارت بين البابوية، وبين الملوك والأباطرة. كما تنطرق الدراسة إلى ذكر أوضاع البابوية عقب رحيلها إلى مدينة أفنيون الفرنسية، منذ الأسر البابوي (1377-1305م) إلى الانشقاق الغربي للكنيسة (1378-1417م). ثم تنتقل الدراسة بعدها إلى الحديث عن أوضاع البابوية من عصر النهضة إلى قيام حركة الإصلاح الديني مروراً بقيام الثورة الفرنسية سنة 1789م، وحتى عقد معاهدة لاتيران سنة 1929م بين البابا وإيطاليا، التي مكنت البابوية من إقامة دولتها الخاصة المدعوة "دولة مدينة الفاتيكان" في قلب العاصمة الإيطالية روما. وتوضح الدراسة إلى الأسباب التي مكنت البابوية من أن تتبوأ زعامة السلطة الزمنية في الغرب الأوروبي، مع ذكر أهم الباباوات الذين رسخوا بنيانها، ودعموا سلطاتها الدينية، وشاركوا في التحكم في الكثير من القرارات الدينية، والسياسية العالمية.

الكلمات الدالة: البابوية، المسيحية، الكنيسة الغربية، الكاثوليكية.

المقدمة

ظهرت الديانة المسيحية مبكراً في أوروبا، وبالرغم من الاضطهاد الذي تعرضت له، إلا أن الظروف السياسية والإدارية التي أحاطت بالإمبراطورية الرومانية، بالإضافة إلى التسهيلات التي قدمها الإمبراطور قسطنطين. مكّنها من الانتشار بسرعة، حتى أصبحت في القرن الرابع الميلادي الديانة الرسمية للإمبراطورية. بدأت المسيحية تأخذ مكانها في المجتمع الأوروبي، وتتوسع في أملاكها. الأمر الذي دفعها إلى إيجاد تنظيم ثابت للإدارة. كان منصب البابوية احد هذه التنظيمات، الذي لم يكن موجوداً أصلاً لا في الديانة المسيحية، ولا في التنظيمات الإدارية الرومانية القديمة. إلا أن السرعة التي انتشرت بها المسيحية، وامتداد نفوذها على مساحات واسعة من أراضي الإمبراطورية، جعلها تحاكي التطور الإداري الروماني لتسهيل عملية السيطرة، والتنظيم على أتباعها وأملاكها. هكذا ظهر التنظيم الكنسي، وعلى رأسه البابوية التي أصبحت منذ نشأتها تمثل أحد مراكز القوى في الغرب الأوروبي. حتى أنها تصدرت هذه القوى بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية. مما مكّنها من أن تصبح قوة دينية، وسياسية فاعلة في الغرب الأوربي امتدت لعدة قرون، واستمرت حتى الوقت الحاضر. وأن كان بشكل ثانوي بعد سنة 1929م.

أولاً: انتشار المسيحية وظهور التنظيم الكنسي.

ظهرت المسيحية في أوروبا في منتصف القرن الأول الميلادي على يد التلاميذ، والرسول، الذين تشتتوا في كل أرجاء الإمبراطورية الرومانية. مما أتاح المجال أمام المسيحية أن تنتشر انتشاراً حثيثاً. بحيث لم يكده ينتهي القرن الثاني الميلادي، إلا وكانت كل ولاية من الولايات الرومانية المطلة على البحر المتوسط تضم بين جنباتها جالية مسيحية. وقد قامت هذه الجاليات ببناء، وتأسيس الكنائس، التي

* قسم التاريخ، كلية الآداب، الجامعة الأردنية. تاريخ استلام البحث 2016/9/28، وتاريخ قبوله 2017/1/21.

انتشرت في كل مدينة وقرية رومانية.

بالرغم من الاضطهاد الذي تعرضت له المسيحية في بداية انتشارها، إلا أن زيادة عدد أتباعها من رعايا الإمبراطورية سرعان ما أدى إلى الاعتراف بها ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية مع نهاية القرن الرابع الميلادي (القيصري، 1960م؛ Smith, 1993). لقد كانت الظروف التي أحاطت بالإمبراطورية الرومانية من أكبر العوامل التي ساعدت على سرعة انتشار المسيحية في كافة بقاعها. فأتساع شبكة الطرق بين أطراف الإمبراطورية الممتدة، وخضوعها لسلطة مركزية ساعد على انتقالها بسهولة، ويسر بين المدن، والولايات الرومانية. فضلاً عن الأمن والسلام الذي ساد ربوعها، وكذلك نشاط التبادل التجاري بين مختلف أجزائها. مما يسر في انتقال الأفكار، والمعتقدات بسهولة بين أرجاء الإمبراطورية، وبالتالي انتشار المسيحية، ووصولها إلى أقصى أطراف البلاد بسرعة فائقة (فشر، 1953م).

كما كان للاهتمام الذي أبداه الإمبراطور قسطنطين الكبير (Costantino il Grande) (306-337م) بالكنيسة أثر كبير في تاريخها، وبين جميع أتباعها. إذ قام سنة 313م بإصدار مرسوم ميلان معلناً فيه حياد الإمبراطورية الرومانية بكل ما يخص شؤون العبادات أمام جميع الديانات على أرض الإمبراطورية، منهيًا بذلك سنوات من الاضطهاد الذي مورس ضد المسيحيين، حيث ألغى الإمبراطور العقوبات المفروضة على الكنيسة، وأعاد لها أملاكها المصادرة. وبذلك عمل الإمبراطور على رد مكانة المسيحيين لهم، فخرجوا من الظل ليحتضروا به، مما فتح المجال أمام المسيحية للانتشار ببسر حتى أصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية (Pamphilus, 1890). جعل الإمبراطور قسطنطين من سلطته الأرضية صورة من السلطة السماوية؛ إذ اعتبر نفسه مفوضاً من الله. مما دفع الكنيسة إلى أن تعتبره كاهنًا الأعلى على اعتبار أنه الأمر النهائي لكل الأديان في مملكته، لذلك خلعت عليه لقب "الحبر الأعظم" (Pontefice)⁽¹⁾ كزعيم لرأس الكنيسة. لقد لعب هذا اللقب دوراً كبيراً في رسم الزعامة الدينية للديانة المسيحية التي بدأ يتعاظم مركزها اتجاه الحياة السياسية، والاجتماعية، إضافة إلى مكانتها الدينية، بعد أن كانت الكنيسة المسيحية في عصرها الأول تمتاز بالبساطة المطلقة، حيث لم تتعد العلاقة التي كانت تجمع بين المجتمعات المسيحية المختلفة رابطة الإيمان بالدين المسيحي (Gusta, 2008).

لقد كان النظام الرئاسي للكنيسة غير موجود. إذ بدأت السلطة الكنسية نظامها بشكل تقليدي أعادت فيها الرعية على إطلاق تسميات مختلفة على رجال الدين الداعين للمسيحية منها؛ الرسل والأنبياء. وعندما زاد عددهم أخذوا يُلقبون بالمعلمين. مما أوجد نظاماً مبسطاً يقوم أساسه على الوحدة الجغرافية (المنطقة)؛ في كل مجتمع مسيحي منها أسقف يساعده فريق من القساوسة، والشمامسة⁽²⁾. ولم يستدع هذا التنظيم المبسط القائم على نطاق ضيق داخل المجتمع المسيحي وجود هيئة كنسية تمثل سلطة دينية ذات نفوذ قوي وفعال في الحياة العامة، وخاصة إن للكنيسة قانونها الخاص الذي تمارسه بشكل مباشر على نواحي الحياة الاجتماعية؛ كالزواج، والدفن، والنواحي الأخلاقية (الكردي، 2011م؛ Pamphilus, 1890).

مع مرور الزمن بدأت تظهر على رأس الكنيسة المسيحية خمسة مراكز كنسية في: روما، وبيت المقدس، والإسكندرية، وأنطاكية، والقسطنطينية. حيث استطاعت كل مدينة أن تكتسب أهمية خاصة بها. فكان لا بد لهذه المدن من وجود نظام أداري للكنيسة ينظم أمورها. مما أدى إلى ظهور النظام الكنسي القائم على التفريغ، والتخصص في سبيل تحقيق أهداف الكنيسة الدعوية (Pamphilus, 1890؛ Baus, 1972).

وقد تمثل النظام الكنسي في ما عرف بالدرجات الكهنوتية⁽³⁾ التي تتكون من ثلاث درجات هي: درجة الأسقفية؛ وهي درجة رعاية. ودرجة القسيسية؛ وهي درجة شفاعنة. ودرجة الشمامسة؛ وهي درجة خدمية. وتنقسم كل درجة منها إلى مجموعة من الأقسام تسمى الرتب الكهنوتية، فالأساقفة يمثلون كبار الرؤساء الدينيين في مدن الإمبراطورية الرومانية، ويرعون شؤونها، ويدعى أحدهم بطريرك أو بطريرق، وتعني "الأب الرئيس"، لذلك استخدمتها الكنيسة للدلالة على رئيس الأساقفة، وله السلطة في تعيين الأساقفة، وتنظيم الطقوس المختلفة في أسقفية (Schaff, 1893).

لقد ظهر النظام الكنسي بهذا الشكل المتدرج مقتبساً من ترتيب النظام الإداري السائد في الإمبراطورية الرومانية، وقد أطلقت الكنيسة على هذا النظام أسم الإكليروس (Clero) أي؛ النصيب أو الميراث. على اعتبار أن رجال الدين المسيحي كرسوا حياتهم من أجل الرب، فأصبح الله نصيبهم وميراثهم.

بدأ الإكليروس بوصفه راعي الديانة الرسمية في الإمبراطورية بالحصول على الامتيازات؛ كالإعفاء من الضرائب، وحق الحصول على التبرعات، والهبات. وكذلك قيام رجال الدين بوظيفة الفصل في المخاصمات التي تنشأ بين أبناء الكنيسة (فشر، 1953م؛ Stark, 2011).

مما أدى ذلك إلى زيادة نفوذ رجال الدين المسيحي في أقاليمهم الجغرافية تدريجياً؛ إما بفضل مكانتهم الدينية - من جهة - أو

بفضل ما جمعه من أموال الصدقات المقدمة من قبل الرعية أو من الهدايا التي بدأ يقدحها عليهم الملوك، والأباطرة من جهة أخرى (جنبيير، 2008م).

هكذا أخذت ثروة الكنيسة بالنمو، والازدياد، وامتلك الأراضي، والضياح الشاسعة، التي تحولت بها الكنيسة من منظمة دينية بسيطة، إلى هيئة دينية واجتماعية ذات سيطرة واسعة ومركزية. وقد ساعد التحول الذي انساقت فيها الكنيسة نحو تقليد النظم الإدارية للإمبراطورية إلى قيام رجال الدين المسيحي بعبء التنظيم الإداري إلى جانب المهام الكنسية (سيد، 2009م). وقد أدى محاكاة الكنيسة للنظم الإدارية الرومانية إلى قيام شخصية بارزة على رأس الكنيسة. كما كان للإمبراطورية إمبراطور يتزعمها، وصار الواحد من الأساقفة يجلس على عرشه الأسقفى كما كان يفعل الأباطرة والملوك. كما تشبه رجال الدين بالنبلاء والأمراء، وأحاطوا أنفسهم بالأتباع والموظفين. خاصة بعد أن أخذوا أدوارهم في القضاء، وأصبحوا على قدم المساواة مع أعضاء مجلس الشيوخ الروماني. حتى جمعت الكنيسة بين الثراء والجاه، وقوة الإيمان (Pamphilus, 1890؛ Stark, 2011).

ثانياً: انقسام الكنيسة الرومانية.

بعد أن دب الضعف في الإمبراطورية الرومانية قام الإمبراطور ثيودوسوس (Teodosio) (379-395م) بتقسيم الإمبراطورية الرومانية بين أبنائه إلى قسمين؛ القسم الشرقي، وأطلق عليه الإمبراطورية البيزنطية. والقسم الغربي باسم الإمبراطورية الرومانية الغربية منهياً بذلك وحدة العالم الروماني التي عرفت باسم السلم الروماني (Pax-Romana) (جنبيير، 2008م) أثر الانقسام السياسي، والجغرافي الذي أصاب الإمبراطورية انتقلت العدوى إلى الكنيسة، التي انقسمت بدورها إلى كنيسة شرقية، وأخرى غربية، بسبب الاختلاف بينهما في اللغة؛ إذ تتحدث الكنيسة الشرقية للغة اليونانية. بينما تتحدث الكنيسة الغربية للغة اللاتينية. كما تختلف الكنيستان في طريقة ممارستها للعبادات وبعض الطقوس؛ كعبادة الأقداس التي: هي عبارة عن رموز وصور تمثل الرموز الدينية المسيحية المتعددة؛ كصور وتمائيل المسيح والعذراء، وصور القديسين وتمائيلهم، وهي مصنوعة بشكل لاهوتي. ويتم استخدام مثل هذه الأقداس أثناء ممارسة الطقوس، للارتقاء بالعبادة إلى المستوى الروحي. وقد كانت الكنيسة الشرقية تستنكر هذه الأعمال. بينما تقرها الكنيسة الغربية. وقد وصلت الاختلافات بين الكنيستين حد الأمور العقائدية وخاصة؛ عقيدتي التثليث والتجسيد اللتان تتعلقا بطبيعة المسيح؛ وهل هي طبيعة إلهية (اللاهوت)، أم بشرية (الناسوت)، أم أنها ذات طبيعتين (Prokurat, 1996)؛ الزيات، 2001م).

هذا بالإضافة إلى إن الكنيسة الشرقية، ومقرها القسطنطينية قد سلمت زمامها للأباطرة الذين ازداد تدخلهم في الشؤون الكنسية، وأنظمتها، وسياساتها المختلفة، إلى درجة أصبح معه من العسير وقف تدخل الأباطرة البيزنطيين الذي أصبحوا يحكمونها بنظام القيصرية البابوية عن طريق؛ الجمع بين سلطة القيصر السياسية، ومهمة البابا الدينية (Stilwell, 2004). أخذت القسطنطينية مكانتها هذه بعد أن قام الإمبراطور قسطنطين ببنائها كعاصمة جديدة لدولته بدلاً من مدينة روما. وقد أقامها في منطقة "بيزنطيوم" على أنقاض مدينة يونانية قديمة على ضفاف البسفور، وأطلق عليها أسم روما الجديدة. وتم نسبت إليه فيما بعد، وسميت "القسطنطينية" (Prokurat, 1996).

زادت مكانة القسطنطينية عند الأباطرة حتى دخلت في تنافس شديد مع روما. تحول هذا التنافس فيما بعد إلى نزاع عقائدي. وقد استمر هذا النزاع حتى حصل الانشقاق بين الكنيستين نهائياً سنة 1054/1053م. وهكذا سميت كنيسة القسطنطينية بالكنيسة الشرقية أو البيزنطية، وكذلك سميت بالكنيسة الأرثوذكسية، واليونانية.

أما كنيسة روما فقد أطلق عليها أسم الكنيسة الغربية، أو الكاثوليكية، وأحياناً اللاتينية أو الرومانية. حيث أصبحت روما هي صاحبة السلطة العليا في الغرب المسيحي، وخاصة بعد سقوط روما، وانهايار الإمبراطورية الرومانية أمام الغزو الجرمانى سنة 476م. هذا فضلاً عن بقاء بابا روما وحيداً لا يناقسه أي قوة في الغرب السياسي، في الوقت الذي كان بعيداً عن سلطان الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية، ونفوذه في الشرق (الزيات، 2001م).

ثالثاً: ظهور البابوية.

بعد أن أصبحت الإمبراطورية عاجزة عن فرض سيطرتها على الدولة، والكنيسة معاً. تمكنت الكنيسة الغربية من التقرد بالسلطة بعد أن جمعت لنفسها ثروة طائلة، وأسست لها نظاماً ثابتاً سمح لرأس الكنيسة في روما أن يطلق على نفسه لقب "البابا" (Papa) كامتياز له. وهكذا أصبح البابا هو رأس الكنيسة في روما، وفي الوقت نفسه، هو أسقف، وبطريك روما. ولقب "البابا" مشتق من الكلمة اليونانية

(Papas) وتعني "الأب"، لان العامة يسمون الأسقف أباً، والأسقف يسمي البطريرك أباً، فسمي البطريرك بابا الذي هو "أب الآباء" أو "رئيسهم"، لأنه أب لجميع الأساقفة، ثم اقتصر اللقب على أسقف روما بشكل خاص (Watchman, 1934؛ الشيخي، 2011م). وقد استمد البابا مكانته من أهمية مدينة روما كعاصمة للعالم الروماني ذات الماضي العريق. محققاً لكنيسة روما السمو، والزعامة على بقية أسقفيات الغرب، باعتبارها أفضل من غيرها من الكنائس. وبفضل تنظيمها الكنسي الدقيق تحول منصب الكرسي الأسقفي لروما إلى كرسي للبابوية. الذي أصبح أعلى منصب ديني للرعيا الكاثوليك. مما جعلهم يطلقون عليه كذلك لقب "الراعي". وهكذا تمتعت البابوية بالسيادة العليا على الكنائس في مختلف بلدان العالم الغربي. ومع ازدياد سلطة البابوية ازدادت مكانة البابا السياسية والاجتماعية (Schaff, 1893).

لقد وضع بابا روما نفسه على رأس الكنيسة الكاثوليكية، التي تتبعها كافة الكنائس التي تؤمن بزعامة البابا على رأس الكنيسة الغربية. كما مهد البابا الطريق لخلفائه الذين أصبحوا يعرفون بخلفاء القديس بطرس⁽⁴⁾ الذي نصبه المسيح خليفته على الأرض، وجعله زعيماً للحواريين الأثني عشر الذين أرسلهم ليلبغوا رسالته (جنيبير، 2008م؛ Gusta, 2008).

وهكذا أدعى البابوات أنهم أصحاب السلطة العليا، والوحيدة على المجتمع المسيحي، فأصبحوا يقضون في الخصومات، والمنازعات التي تجري بين الكنائس المختلفة - من جهة - وبين الرعية من جهة أخرى. كما أنهم يُستفتون في كل الأمور، والأحوال موضع الشك، وأخذت البابوية تنمو ببطء، ولكن بشكل متين عبر القرون، مما أكسبها مزيداً من القوة، والاتساع، والوحدة (Robert, 1701).

شيدت البابوية كنائسها المختلفة في روما؛ ككنيسة القديس بطرس، وكنيسة القديس بولس⁽⁵⁾، لربط روما بذكرى القديس بطرس الذي اتخذ منه المسيح صخرة بنى عليها كنيسته: "وَأَنَا أَقُولُ لَكَ أَيضاً: أَنْتَ بَطْرُسُ وَعَلَى هَذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيستِي" (متى، 1986م)، فإذا كان بطرس يمثل زعيم الحواريين، وبعدّ مقدم الرسل، فان - خلفاءه - أساقفة روما؛ هم أحق الناس بان يرثوا زعامة العالم المسيحي (Watchman, 1934؛ عاشور، 1976م).

تمسك باباوات روما دائماً بفكرة أنهم خلفاء القديس بطرس؛ الذي هو رئيس الحواريين. ويطلق على الحواريين لقب "الرسل" لأنهم رسل المسيح الذين اعتمدت على أقوالهم وكتاباتهم التعاليم المسيحية. لذلك يطلق على منصبهم أسم "الكرسي الرسولي" لأنهم الآباء الرسل أو الآباء الكنسيون. وقد مثل الكرسي الرسولي الهيئة العليا لإدارة الكنيسة الكاثوليكية، الذي يترأسه البابا المنتخب من كبار الأساقفة، التي أعترف بزعامتها جميع أسقفيات الغرب في القرن الخامس الميلادي، ولم تعارضها سوى الكنيسة الشرقية (Watchman, 1934؛ ياكوبوس، 2000م).

لقد برزت السيادة البابوية سواءً، عن طريق تعاضم ثروة أسقفية روما أو بسبب ممارستها للأحكام القضائية المتعلقة بالمجامع الكنسية، التي يجتمع فيها رجال الدين من كافة الكنائس المسيحية، بهدف البحث في المشاكل الدينية المتعلقة بالعقيدة، والإيمان، من أجل وضع الحلول، وتشريع القوانين اللازمة للتعامل معها. وقد أظهرت هذه المجامع البابا بمثابة الحكم الأعلى أو السيد الأكبر لمختلف الأسقفيات (اللحام، 2008م).

أدى غروب شمس الإمبراطورية الرومانية عن روما إلى تعاقب الكثير من البابوات من أصحاب النفوذ القوي على الكرسي الرسولي. مما عزز مكانتهم في الغرب الأوروبي؛ إذ قام البابا داماسوس الأول (Damaso I) (366-384م) بترجمة الكتاب المقدس إلى اللاتينية، حتى يضمن وجود نسخة موحدة يجمع عليها المسيحيون تحت سلطته. مما مثل البداية الأولى لإبراز مكانة كرسي روما الأسقفي (Robert, 1701).

كما قام البابا سيريكوس (Siricio) (384-399م) باستخدام لقب "بابا" رسمياً في المراسم والخطابات. بعد أن قام بتأليف المراسم البابوية التي تمثل الطقوس المختلفة التي يقوم بها البابا أثناء تسلمه لمنصب الكرسي البابوي سواء كانت دينية، أو دبلوماسية، أو اجتماعية. هدفها إحاطة البابا بنوع من الهالة والعظمة. حيث مثلت البداية الحقيقية للسيادة البابوية. هذا بالإضافة إلى الدور الذي لعبه البابا ليو الأول (Leone I) (440-461م) في أبراز، وتعزيز السلطة البابوية بعد نشره لنظرية البابوية العليا، التي تقوم على أن المسيح قد سمى بطرس زعيماً للرسل، الذي بدوره نقل زعامته للبابا. وقد لاقت هذه النظرية استحساناً كبيراً لدى أساقفة روما. في سنة 455م أصدر الإمبراطور فالنتينيان الثالث (Valentiniano III) (425-455م) إمبراطور الإمبراطورية الغربية مرسوماً يقضي بخضوع كافة أساقفة الغرب للسلطة البابوية في روما. مما عزز من مكانتها (ياكوبوس، 2000م؛ Cohen, 2014؛ عاشور، 1976م).

برز النفوذ البابوي بشكل عملي في عهد البابا غريغوري الأول أو العظيم (Gregorio I/Grande) (590-604م) الذي بدأ وظيفته البابوية بتحسين الأسوار والقلاع، وإعداد الجند في وجه الغزو للمباردي⁽⁶⁾ لجنوب إيطاليا سنة 598م. وقد حل غريغوري العظيم

بممارسته هذه الأعمال محل الإمبراطور بكافة سلطاته السياسية، والإدارية، والعسكرية - إلى جانب سلطة البابا الكنسية - بعد أن اتخذ نفسه لقب "خادم خدام الرب" حيث دانت نفوذه الكنيسة الغربية بكاملها. وقد كان لهذا البابا الفضل في تشجيع الرهبان في الأديرة للخروج من عزلتهم، والتبشير بالدين المسيحي (Robert, 1701؛ دوسن، 1967م).

لم تتورع الكنيسة عن القيام بأي عمل من شأنه تثبيت سلطتها في العالم المسيحي، الذي ظهر في تزييفها للوثيقة التي أعلنت عنها سنة 750-795م، وعرفت باسم "هبة قسطنطين"⁽⁷⁾ وهي وثيقة موجهة من الإمبراطور قسطنطين إلى البابا سلفستر الأول (Silvestro I) (314-355م). وتتكون الوثيقة من جزئين: الأول بعنوان "الاعتراف"؛ ويقر فيها الإمبراطور بإيمانه بالمسيحية. أما الجزء الثاني، فهو بعنوان "الهبة"؛ وفيها يتنازل قسطنطين للبابا - ومن خلفه - عن بطريكيات؛ إنطاكية، والإسكندرية، والقسطنطينية، والقدس، وله الأولوية عليه.

كما تنازل قسطنطين - حسب إدعاء الكنيسة - عن مدينة روما، وكل مقاطعات، ومدن إيطاليا، وكذلك المناطق الغربية للإمبراطورية. كما جاء بالوثيقة أن الإمبراطور سينتقل إلى مدينة القسطنطينية التي بناها، لأنه لا يجوز أن يكون له سلطة في المكان الذي أقام الله فيه مقراً لزعيم الديانة المسيحية. وبناء على هذه الوثيقة طالبت الكنيسة بالسيادة العالمية الزمنية، والدينية (Valla, 1994). زادت مكانة البابوية بقدم الملك شارلمان (Carlo Magno) (768-814م) إلى الحكم. حيث أعاد شارلمان تنظيم المنطقة الخاضعة لسلطة البابا الزمنية سنة 781م (Dominion, 1838)، وقام بتوسيم حدودها. مما أكسب شارلمان رضا الكنيسة التي دفعت بالبابا ليو الثالث (Leone III) (795-816م) إلى تنويجه سنة 800م إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة، وحامياً للسدة البابوية. أصبح شارلمان رأس الكنيسة الغربية، والإمبراطورية المقدسة القائمة على فكرة إن المسيحية كلها يجب أن تكون دولة واحدة يحكمها البابا (السلطة الدينية)، والإمبراطور (السلطة الدنيوية) بتفويض من الله، وبدأ يعين رجال الدين، ويدعو إلى عقد المجامع الدينية (عمران، 1986م).

وبالرغم من الخدمة الكبيرة التي قدمها شارلمان للبابوية، إلا إن خلفاءه من بعده عمدوا إلى التدخل في شؤونها. حيث قام الإمبراطور أوتو الأول (Ottone I) (936-973م) سنة 963م بخلع البابا يوحنا الثاني عشر (Giovanni XII) (955-964م)، فقام رجال الدين بانتخاب البابا بندكت الخامس (Benedetto V) (964-964م) دون استشارة الإمبراطور، مما دفع الإمبراطور إلى خلع البابا الجديد، وتنصيب البابا ليو الثامن (Leone VIII) (964-965م) بدلاً عنه. مما سمح للإمبراطور حق التدخل في انتخاب البابا، مما أوجد نوعاً من القيصرية البابوية (خضوع البابوية للأباطرة) حيث دخلت البابوية في حالة ضعف شديد (Ullmann, 2010؛ Gwatkin, 1922). لقد بدأ المذهب الكاثوليكي يأخذ مكانته في الغرب الأوروبي منذ سنة 1054م في عهد البابا ليو التاسع (Leone IX) (1049-1055م) بعد أن سلمت الكنيسة في روما سلطاتها للبابا بصفته وريثاً لأقرب حواربي السيد المسيح؛ ألا وهو القديس بطرس (دوسن، 1967م).

رابعاً: الصراع على السلطة بين البابوية والإمبراطورية.

في سنة 1073م أعلت عرش البابوية البابا غريغوري السابع (Gregory VII) (1073-1085م) الذي بدأ عمله بالحرص على استقلال الكنيسة، ومنع التدخلات الخارجية في شؤونها، وأعاد للبابوية قوتها العليا. إذ أعلن البابا غريغوري سنة 1075م مجموعة من الأوامر، والتعليمات الكنسية أسماها "الإملاء البابوي" من أجل ضبط الكنيسة، وإعادة تنظيمها، ومن هذه التعليمات: إن البابا وحده من يجمع بين السلطتين الروحية والزمنية. وهو الذي يمتلك سلطة تعيين رجال الدين أو عزلهم. وله كذلك الحق بتتويج الأباطرة وعزلهم. ويكون للبابا حق تسريح، وإخلاء الرعية من الالتزام بالعهد والولاء لحكامهم. وليس لأحد أن يلغي قرار البابا، كما انه له الحق أن يلغي قرارات كافة الناس. وهكذا ظهر الإملاء البابوي كقانون كنسي دائم بأحقية البابا في الزعامة المطلقة على السلطة الزمنية، ليمهد بذلك الطريق لفتح صفحة ناصعة في تاريخ، ومستقبل البابوية (Gwatkin, 1922).

جاءت أفكار غريغوري السابع انطلاقاً من مبدأ إن إصلاح العالم ينطلق من الخضوع للكنيسة، التي تخضع بدورها للبابا، لذلك سعى جاهداً في تنفيذ إصلاحاته بعزم وصلابة. مما جعله في صدام مباشر مع ملك ألمانيا هنري الرابع (Enrico IV) (1084-1105م)، الذي عزله البابا من منصبه، وحرر جميع أتباعه من يمين الولاء والطاعة التي أقسموها للملك. مما دفع الملك للخضوع للبابا طلباً للعفو والمغفرة. وبهذا يكون الملك هنري الرابع قد اعترف بحق البابوية في عزله وحرمانه من رعاية الكنيسة، وهكذا وجد سلاح الحرمان كأداة فعالة بيد البابوية.

وفي عهد الإمبراطور فريديك بربروسا (Federico Barbarossa) (1152-1190م) بدأ جهوده لإعادة مجد الإمبراطورية الرومانية

المقدسة، وبدأ يدعو لنفسه بالسيادة بدلاً من البابا. حيث أرسل جيوشه للسيطرة على البابوية بالقوة. مما دفع البابا الكسندر الثالث (Alessandro III) (1159-1181م) للاستعانة بالمدن الإيطالية، وتشكيل حلف "العصبة للمباردية" حيث تمكنوا من الانتصار على القوات الإمبراطورية سنة 1176م (عمران، 1986م).

تمكنت البابوية من فرض نفوذها القوي على الواقع المسيحي في الغرب الأوروبي منذ عهد البابا أوربان الثاني (Urbano II) (1088-1099م)، الذي وجه دعوته إلى الأباطرة، والملوك، وكافة الرعية في أوروبا من أجل القيام بالحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في مؤتمر كليرمونت سنة 1095م. مما أدخل البابوية في فترة سلام وازدهار (Hertling, 1967).

وفي عهد البابا أنوسنت الثالث (Innocenzo III) (1198-1216م) اعتبرت البابوية جميع الأباطرة، والملوك هم مجرد أتباع للكنيسة الكاثوليكية، وإن سلطتهم مستمدة من السلطة الإلهية، التي هي في عهدة رجال الدين (Schaff, 1893).

ازدهرت السلطة البابوية في عهد البابا بونيفاس الثامن (Bonifacio VIII) (1294-1303م) الذي بلغت قوة البابوية في عهده أن ادعى نظرية "السيفين"، ومفادها أن الله خلق سيفين يتزعمان العالم؛ أحدهما: السيف الروحي للبابا، والآخر: السيف الزمني للإمبراطور، وأن السيف الزمني يجب أن يخضع للسيف الروحي تحت سلطة الكنيسة الموحدة (Hertling, 1967).

خامساً: بابوية أفنيون (1417-1305م).

بلغت البابوية قمة نفوذها في القرن الثالث عشر الميلادي. إلا أن الأطروحات الجديدة التي طرحها البابوات أدت إلى تجدد الصراع بين البابوية، والسلطة الزمنية. مما عرضها لهزات عنيفة أضعفت مركزها وقللت من سلطانها. وتمثلت هذه الصدمات في:

1- الأسر البابوي (1377-1305م).

أدت نظرية السيفين التي نادى بها البابا بونيفاس الثامن إلى تعرضه للهزيمة العسكرية بسبب الهجوم الذي قام به ملك فرنسا فليب الرابع (Filippo IV) (1285-1314م) الذي تمكن من السيطرة على مقر البابوية في روما. حيث لم يكتف بالقبض على البابا، وإنما عرضه للإهانة، والإذلال. وبعد وفاة البابا سنة 1303م تولى الكرسي البابوي بعده البابا بندكت الحادي عشر (Benedetto XI) (1303-1304م) الذي توفي في العام التالي.

في سنة 1305م قام مجمع الكرادلة البابوي المنعقد في روما باختيار أسقف مدينة بوردو (Bordeaux) الفرنسية لمنصب البابا تحت اسم كليمنت الخامس (Clemente V) (1035-1314م). كان مجمع الكرادلة ذي أغلبية فرنسية. مما عرضه لضغوط شديدة من قبل هنري الرابع. أبي البابا كليمنت الخامس أن يضع نفسه تحت نفوذ كرادلة روما، وضغطهم. مما دفعه للإقامة بعض الوقت في مدينتي ليون ويوانتيه، ثم قام أخيراً بنقل مقر البابوية إلى مدينة أفنيون (Avignone) الفرنسية على ضفة نهر الراين. مما أوقعها تحت سيطرة ملوك فرنسا لفترة طويلة (Daunou, 1838).

بعد وفاة البابا كليمنت الخامس شغل منصب البابوية لمدة سنتين؛ بسبب الخلاف الواقع في اختيار خليفة جديد للبابا الراحل. تم بعدها اختيار البابا يوحنا الثاني والعشرين (Giovanni XXII) (1316-1334م). وهكذا استمر منصب البابوية أسيراً لمدينة أفنيون، وتحت رحمتها. حيث قامت البابوية تحت ضغط الملوك الفرنسيين إلى فرض الضرائب الباهظة على تسلم المناصب الدينية؛ إذ يقوم رجال الدين الجدد بدفع عشر واردات مناصبهم إلى البابوية. كما إنها قامت بمصادرة كافة أملاك رجال الدين المتوفين الشخصية، وتم إعادتها إلى حظيرة البابوية. هذا بالإضافة إلى تجاهل حق الأديرة، والكنائس، والأسقفيات في اختيار الأساقفة، والقسس، ورؤساء الأديرة الجدد.

لقد أدت هذه الأعمال إلى أن حل الخراب في ممتلكات الكنيسة؛ بسبب كثرة الحروب، وانتشار اللصوص، وقطاع الطرق الأمر الذي دفع برجال الدين في عهد البابا غريغوري الحادي عشر (Gregorio XI) (1371-1378م) إلى رفض أداء العشور للكنيسة. مما أدى إلى تفاقم الصراع بين رجال الدين، والبابوية نتج عنه ما عرف باسم "الانشقاق الغربي" (Scima d'Occidente) (1378-1417م) للكنيسة الكاثوليكية (Daunou, 1838؛ فشر، 1957م).

2- انشقاق الكنيسة الغربية (1417-1378م).

بعد وفاة البابا غريغوري الحادي عشر حدث الانشقاق الكبير في الكنيسة الغربية؛ نتيجة لاختيار البابا أوربان السادس (Urban VI) (1378-1389م) المدعوم من فرنسا سنة 1378م لكرسي البابوية. مما أدى إلى اعتراض الكثير من رجال الدين معتبرين أن عملية الانتخاب جرت تحت التهديد. وهو ما دفع المعترضين إلى اختيار كليمنت السابع (Clemente VII) كبابا لهم، وهكذا انقسمت الكاثوليكية إلى معسكرين. ولتطبيق الأزمة اتفق الطرفان على عزل البابوين أوربان وكليمنت، وانتخاب بابا ثالث؛ هو اسكندر الخامس (Alessandro

(V) الأمر الذي رفضه الطرفان. مما جعلهم يسارعون إلى عقد مجمع كونستانس (Costanza) (1414-1418م)، الذي تمخض عنه عزل جميع البابوات السابقين، وانتخاب البابا مارتن الخامس (Martino V) (1417-1431م) منهيًا حالة الانشقاق الحاصل. حيث عاد البابا إلى مقره في المدينة المقدسة روما (Abulafia, 2008).

سادساً: البابوية من عصر النهضة إلى الإصلاح الديني.

شكل الانشقاق الغربي منعطفاً فاصلاً في تاريخ البابوية. حيث بدأت الكنيسة تشعر بالخطر بسبب ظهور حركات الاحتجاج المطالبة بتقليص صلاحيات الكنيسة، مما دفع البابا يوليوس الثاني (Giulio II) (1503-1513م) سنة 1506م إلى تأسيس قوات عسكرية من أجل حماية الكرسي البابوي، وقد أطلق على هذه القوات اسم "الجيش البابوي" أو "الحرس السويسري"، وذلك بعد أن كانت البابوية تعتمد على الجنود المرتزقة للدفاع عن كيانها، والقيام بحروبها المختلفة (Alvarez, 2011).

أدى ظهور عصر النهضة في أوروبا إلى ولادة الفكر الغربي من جديد. بما يمثله معنى "النهضة" من تجدد للحياة، والبعث في حركة شاملة، واتجاه جديد في تفكير الناس، وأعمالهم ومعيشتهم. إذ شكلت الحركة الفكرية، وما صاحبها من اختراع الطباعة إلى ظهور حركة الإصلاح الديني سنة 1517م. حيث أدى انتشار الطباعة إلى توزيع الكتاب المقدس على كافة فئات المجتمع المسيحي، وبالتالي القضاء على عملية احتكار رجال الدين لنصوص الكتاب المقدس وتفسيره (Dark, 1922).

نتج عن حركة الإصلاح الديني خروج الكثيرين من أتباع الكنيسة عن طاعة البابا، وخاصة بعد ظهور حركة الإصلاح البروتستانتي على يد الألماني مارتن لوثر (Martin Lutero) (1483-1546م)⁽⁸⁾، الذي شرع بحركته منادياً بالإصلاح الديني للكنيسة. حيث قام لوثر بتشييد الكنائس الوطنية التي لا تتبع للبابا في روما، وطالب بالسماح لرجال الدين بالزواج، وحرمة البيع والمتاجرة في صكوك الغفران⁽⁹⁾، ودعا إلى الاكتفاء بالكتاب المقدس ليحصل البشر على الخلاص. وقد انتشرت البروتستانتية في ألمانيا، والدول الاسكندنافية: (الدنمارك، والسويد، والنرويج)، بالإضافة إلى أجزاء من بولونيا (بولندا) (الزيات، 2001م).

وفي فرنسا قاد جان كالفن (Giovanni Calvino) (1509-1564م)⁽¹⁰⁾ حركة الإصلاح الديني متأثراً بأفكار لوثر الإصلاحية، وترجم الكتاب المقدس إلى الفرنسية، باعتباره المصدر الوحيد للدين المسيحي، كما ألغى كل الشعائر والطقوس داخل الكنيسة. وقد انتشرت أفكار جان كالفن أو الكالفينية في فرنسا، والأراضي المنخفضة، واسكتلندا، وأمريكا الشمالية.

وفي سنة 1534م انفصلت كنيسة إنجلترا عن السلطة البابوية بدعم من الملك هنري الثامن (Enrico VIII) (1509-1547م) ملك إنجلترا وأيرلندا، الذي أصبح بعد الانفصال رئيساً للكنيسة الإنجليزية بدلاً من بابا روما. ومن ثم أطلق عليها اسم "الكنيسة الإنجليكانية" التي أصبحت بعدها خاضعة للتاج الملكي. ويعدّ أسقف "كانتربري" أعلى سلطة دينية في الكنيسة الإنجليكانية حتى الآن (Cramp, 1851).

قامت الكنيسة الكاثوليكية رداً على حركة الإصلاح الديني بحركة الإصلاح المضاد أو حركة الإصلاح الكاثوليكي بهدف مقاومة الإصلاح البروتستانتي. ولقد تجلت الأصولية المسيحية في الرد على الخارجين عن سلطة ونفوذ الكنيسة الكاثوليكية، بان قامت البابوية بتأسيس "جماعة اليسوعيين" التي ترفع شعار الطاعة الكاملة لرؤساء الكنيسة الكاثوليكية لمواجهة الفكر البروتستانتي. هذا بالإضافة إلى إنشائها محاكم مختصة سنة 1542م بهدف مطاردة أتباع البروتستانتية دعيت محاكم التفتيش (Inquisizione)⁽¹¹⁾ (Watchman, 1934). أوجدت حركة الإصلاح الديني انقسام في الخريطة الدينية لأوروبا، وخاصة الانقسام بين الكاثوليكية، والبروتستانتية، الذي أدى إلى صدام ديني عنيف بين الدول البروتستانتية والكاثوليكية في أوروبا، نشب عنها الحروب الدينية التي عرفت باسم "حرب الثلاثين عاماً"، التي لم تنته إلا بعقد صلح وستفاليا (Vestfalia) في ألمانيا الحالية سنة 1648م.

أسفر صلح وستفاليا عن وقف الحروب، والنزاعات المذهبية بين البروتستانت، والكاثوليك، وان يكون لكل المسيحيين الحرية في اختيار المذهب الديني الذي يرغبون به. كما عمل مؤتمر الصلح على إنهاء النزاع بشأن أملاك الكنيسة؛ فالأملاك التي توّول إلى كل من البروتستانت، والكاثوليك، والموجودة بين أيدي الطرفين حتى ذلك التاريخ تعتبر ملكاً له (Cramp, 1851).

تمكنت عملية الإصلاح الديني من زعزعة ولاء الكاثوليك الديني للبابا. كما أدت إلى سقوط العصمة التي تدعيها البابوية. وكذلك ظهور التشريعات المدنية في وجه التعاليم الدينية، مما دفع البابوية إلى عقد مجمع ترنت (Trent) (1535-1563م)، الذي تمخض عنه عملية إصلاح بينها الداخلي. فبعد أن كان البابا؛ هو الحاكم المطلق داخل البابوية - لا يقيد سوى الكتاب المقدس - عمل على تنظيم البابوية على شكل هيئات إدارية يفوض فيها البابا بعض صلاحياته إلى هذه الهيئات، التي عرفت بالمجامع الرومانية (Curia Romana) بهدف مساعدة البابا في الإشراف، والتنظيم (اللحام، 2008م).

وهكذا يتولى البابا الاختصاص في الشؤون الروحية مقابل تفويض أحد الكاردينالات⁽¹²⁾ الشؤون الإدارية الداخلية، والمتعلقة بالأمر القضائية داخل البابوية. في حين يتولى آخر الشؤون الخارجية التي تقوم على إدارة كافة المفوضيات التي قام البابا بإرسالها إلى كافة البلاد على شكل سفراء أو ما تطلق عليها البابوية أسم "بعثات الكرسي الرسولي" في سبيل تنظيم أوضاع الكنيسة الكاثوليكية الدينية، والسياسية الخارجية في تلك البلدان (Watchman, 1939).

وبالرغم من حالة الجمود التي دخلت فيها البابوية، أثناء وجودها في مدينة أفنيون، إلا أنها تمكنت من التحول إلى أحد مراكز النهضة الإيطالية. حيث ظهرت النهضة البابوية التي امتدت من الانشقاق الغربي سنة 1417م إلى عصر الإصلاح البروتستانتي بداية القرن السادس عشر الميلادي. وقد أعتلى السدة البابوي أربعة عشر بابا أطلق عليهم أسم "باباوات عصر النهضة"، وفيها تطورت البابوية بشكل كبير. حيث اتخذت البابوية لنفسها مكانة مميزة في الدبلوماسية الأوروبية، وتم اللجوء للبابا للتحكيم في النزاعات التي تنشأ بين القوى الاستعمارية المتنافسة (Watchman, 1934).

وبعد أن انتهت مرحلة الخلافات السياسية، والانشقاقات، سادت مرحلة جديدة من التطور في الأدب، والثقافة، والاختراعات العلمية، التي قادت البابوية إلى إنشاء مكتبة الفاتيكان في عهد البابا نيقولا الخامس (Niccolo V) (1447-1455م). كما قام البابا سيكستوس الرابع (Sisto IV) (1471-1484م) ببناء الكنيسة السيستينية التي تعتبر من أكبر كنائس الفاتيكان، وتشتهر الكنيسة بمعمارها الفريد المستوحى من معبد سليمان في العهد القديم، وقد رسمت أغلب لوحاتها الجدارية بأيدي كبار فناني إيطاليا من أمثال؛ مايكل أنجلو (Michelangelo) (1475-1564م)، ورافائيل (Raffaello) (1483-1520م) (Abulafia, 2008؛ Dark, 1924).

وقد بدأ البابا يوليوس الثاني سنة 1506م في تشييد كنيسة القديس بطرس فوق كنيسة القسطنطينية التي بناها الإمبراطور قسطنطين في القرن الرابع الميلادي على موقع الضريح الذي دفن فيه القديس بطرس. وبعد إعادة بنائها سميت كنيسة القديس بطرس. ثم شرع البابا بولس الثالث (Paolo III) (1534-1549م) ببناء الفاتيكان (ياكوبوس، 2000؛ جنبيير، 2008م).

وقدم البابا غريغوري الثالث عشر (Gregorio XIII) (1572-1585م) تقويمه المسمى "التقويم الغريغوري"⁽¹³⁾. وقد تم استخدام هذا التقويم بعد أن ثبت وجود فارق أحد عشر يوماً في الاعتدال الربيعي للتقويم الجولياني المستخدم سابقاً - منذ سنة 54 ق.م - في عهد الإمبراطور يوليس قيصر (Giulio Ceasar) (100-44 ق.م). وقد قامت البابوية في هذه الفترة بتأسيس العديد من الجامعات الأوروبية؛ كجامعة باريس، وفلورنسا، وميلان (Daunou, 1838).

بدأت البابوية نتيجة للتطورات المستجدة، ورغبة منها في المحافظة على سلطاتها بالتعامل مع التحولات الجديدة بشكل حذر، وخاصة المسائل الدينية السياسية. حيث أدان البابا بندكت الرابع عشر (Benedetto XIV) (1740-1758م) أفكار الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو (Montesquieu) (1689-1755م) سنة 1751م، والواردة في كتابه "روح القوانين". أما البابا كليمنت الثالث عشر (Clemente XIII) (1758-1769م) فقد أدان حركة التنوير⁽¹⁵⁾ التي نادى بالتخلص من استبداد الحكام، والكنيسة (Hertling, 1967).

ثم انتقلت عملية الصدام مع السلطة البابوية إلى مناهضتها علنياً، وخاصة في فرنسا التي اندلعت فيها الثورة الفرنسية سنة 1789م في حبرية البابا بيوس السادس (Pio VI) (1775-1799م)، فأصبح الصراع مفتوحاً بين الدولة المدنية، والبابوية. واعتبر البابوات أنفسهم سجناء الفاتيكان بمحض إرادتهم لحين وضع حد للتدخل في سلطة البابا. واستمر النزاع مع السلطات الإيطالية حتى سنة 1929م. حيث تم توقيع معاهدة لاتيران⁽¹⁵⁾ (Laterano) بين البابا بيوس الحادي عشر (Pio XI) (1922-1939م)، والحكومة الإيطالية، بإقامة "دولة مدينة الفاتيكان" داخل مدينة روما كدولة مستقلة بذاتها بزعامة البابا.

منذ ذلك الوقت أصبحت البابوية لا تمثل اليد العليا في السلطة، بل أصبحت خاضعة للسلطة السياسية التي رافقتها التغييرات المتوالية. مما دفع البابوية إلى الانخراط في هذا التغيير الدائم بما يتوافق مع مصالحها، ومكانتها. بقي أن نقول أنه بالرغم من التأثيرات الكبيرة التي أحاطت بمكانة البابوية، وصلاحياتها، إلا أنها هي صاحبة الحق المطلق، والوحيد على القرارات الدينية، والعقائدية التي تخص المسيحية الكاثوليكية، كما أن لها تأثيراً ثانوياً على كثير من القرارات السياسية في الغرب الأوروبي. حيث أصبحت لا تمثل فيه الحاكم المطلق (Hertling, 1967).

الخاتمة:

يتبين مما تقدم أن البابوية لم تكن موجودة في الديانة المسيحية أو في التنظيمات الإدارية الرومانية، وأنها ظهرت نتيجة للانتشار الواسع الذي حققته المسيحية على أراضي الإمبراطورية. مما فتح المجال لها لإيجاد تنظيم أداري يحاكي النظم الرومانية السائدة. مما أدى إلى إيجاد التنظيم الكنسي الذي يترأسه البابا، وهكذا بدأ المركز البابوي يأخذ مكانته في الحياة الدينية والسياسية.

لقد ظهر منصب البابا كامتياز خاص لرأس الكنيسة في روما، وفي الوقت نفسه؛ هو أسقف، وبطريك روما: أي إنه أب لجميع الأساقفة في الغرب الأوروبي. حيث استمد البابا مكانته هذه من أهمية مدينة روما كعاصمة للعالم الروماني. وهكذا شكل منصب البابوية سلطة بارزة، وقوية في الغرب الأوروبي نتيجة للمكانة التي بدأ يرتقيها أسقف روما - من جهة - وبسبب تعاضم ثروة أسقفية روما بما ملكته من المنح والهبات من جهة أخرى. هذا بالإضافة إلى أن سقوط روما، وانهيار الإمبراطورية الرومانية أمام الغزو الجرمانى سنة 476م جعل بابا روما يقف وحيداً لا ينافسه أي قوة في الغرب السياسي، في الوقت الذي كان فيه كذلك بعيداً عن سلطان الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية ونفوذه في الشرق.

وقد أدعى البابوات أنهم أصحاب السلطة العليا، والوحيدة على المجتمع المسيحي لممارستهم للإحكام القضائية، فأصبحوا يقضون في الخصومات، والمنازعات التي تجري بين الكنائس المختلفة من جهة وبين الرعية من جهة أخرى، كما أنهم يُستقون في كل الأمور، والأحوال موضع الشك؛ من أجل وضع الحلول المناسبة وتشريع القوانين اللازمة للتعامل معها، وهكذا ظهر البابا بمثابة الحاكم الأعلى أو السيد الأكبر لمختلف الأسقفيات.

لقد كان لتعاقب الكثير من البابوات من أصحاب النفوذ القوي على الكرسي البابوي دور كبير في تعزيز مكانتهم في الغرب الأوروبي، وخاصة بعد أن أصبح البابا خليفة للقديس بطرس الذي سمي زعيماً للرسول، الذي نقل زعامته للبابا. ومن هؤلاء البابوات؛ داماسوس الأول، وليو الأول، وغريغوري الأول أو العظيم، وسلفستر الأول، وليو التاسع، وسيريكوس، وغريغوري السابع، وبونيفاس الثامن، الذين كان لهم دور بارز في صراع البابوية للحصول على السلطة الزمنية (الملحق رقم 1)).

بالرغم من أن منصب البابوية قد حقق مكانة عالية في الحياة الكنسية للمسيحيين الكاثوليك. إلا أنه وقع في أغلب الأحيان في صدام مباشر مع السلطات السياسية؛ نتج عنها انتقال البابوية للإقامة في مدين أفنيون الفرنسية في الفترة (1417-1305م)، وما نتج عنها من حدوث الأسر البابوي، والانشقاق الغربي في الكنيسة الكاثوليكية.

أدت إقامة البابوية في أفنيون إلى ظهور عصر النهضة، وما رافقها من تطور في الأفكار الحرة، ومهاجمتها لتسلط رجال الدين، والكنيسة على حياة الأفراد، والمجتمع. تطور عصر النهضة فيما بعد إلى نشوب حركة إصلاح ديني شامل في التعاليم، والممارسات الدينية؛ نتج عنها ظهور الكنيسة البروتستانتية، والكالفينية، والأنجليكانية. مما تسبب في سقوط هيبة البابوية التي دخلت في صراع مفتوح مع السلطة المدنية بلغت ذروتها بنشوب الثورة الفرنسية.

لقد أدى هجوم الأفكار الثورية على البابوية إلى استمرار حالة النزاع، والصدام مع الدولة المدنية، حتى تمكنت البابوية من إقامة دولتها المستقلة في دولة مدينة الفاتيكان (Stato della Città del Vaticano) بعد توقيع معاهدة لاتيران سنة 1929م.

الهوامش

- (1) الحَبْرُ: (بفتح الحاء وتسكين الباء وفتح الراء) تعني الزينة والحسن، وكذلك بمعنى "العالم" عند إطلاقها على احد رؤساء الكنيسة. أي العالم الصالح المنوط به تحسين العالم. ويطلق لقب "رئيس الاحبار" أو "الحبر الأعظم" على بابا الكنيسة الكاثوليكية (فشر، 1953م).
- (2) الأسقفية: هي رتبة دينية تمنح حاملها الذي يدعى أسقف درجة الرعاية للبشر المسيحيين على أن يكون قادراً على تعليمهم، ووعظهم في أصول الدين المسيحي. كما تكون له المقدره على توبيخ المناقضين منهم. وتمتد سلطة الأسقف إلى عدة مدن. - القسيسية: هي كذلك رتبة دينية تعني الشيخ أو الكاهن، ويدعى صاحبها باسم القس أو القسيس، وهو من يقوم بالشفاعة للرعايا المسيحيين. وهو اقل رتبة من الأسقف. وسلطته تتوقف على حدود القرية أو المدينة ولا تتعداها. - الشماسية: وهي الأخرى رتبة دينية يباشر أصحابها كافة الأمور الخدمية في الكنيسة الواحدة، وكذلك كافة أمور الخدمة الاجتماعية لأتباع كنيسته (الكردي، 2011م؛ Pamphilus, 1890).
- (3) الكهنوت: هي الوظائف الكنسية التي يمثلها السلم الوظيفي للرتب الدينية المسيحية، وتشكل في مجموعها نظام الإكليروس، وأخذت التسمية من وظيفة الكاهن. وتستخدم كذلك في الديانة اليهودية (Schaff, 1893).
- (4) القديس بطرس: هو سمعان بن يونا، وبطرس تعريب للكلمة اليونانية (Petra) وتعني الصخرة. تعرض للاضطهاد الديني والتعذيب ثم القتل على أيدي السلطات الرومانية في عهد الإمبراطور نيرون (Nerone) (37-68م) (Gusta, 2008).
- (5) القديس بولس: هو بولس الطرسوسي الذي أطلق بعد اعتناقه المسيحية إلى سوريا واسيا الصغرى مبشراً بالدين الجديد ثم ذهب إلى روما حيث لقي الاضطهاد على أيدي السلطات الرومانية (Gusta, 2008).
- (6) الغزو للمباردي: للمبارد هم أحد الشعوب الجرمانية التي غزت شبه الجزيرة الإيطالية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين. استطاع المبارديون من تأسيس المملكة للمباردية في وسط، وجنوب إيطاليا، بالإضافة إلى جزيرة صقلية في الفترة (568-774/569م) حيث

- سقطت على يد شارلمان (Gwatkin, 1922).
- (7) وثيقة هبة قسطنطين: يطلق الغرب على هذه الوثيقة أسم "التزوير الورع"، وذلك بعد أن أثبت المفكر الإيطالي لورنزو فاللا (Lorenzo Valla) (1406-1457م) زيفها سنة 1440م (Valla, 1994).
- (8) مارتن لوثر: ولد لوثر في مقاطعة سكسونيا بألمانيا، ثم درس القانون، وفي سنة 1505م دخل الدير وأصبح راهباً، نادى أثناء الوعظ، والتدريس بتخليص المسيحية من العقائد غير الأصيلة التي دخلت عليها (Watchman, 1934).
- (9) صكوك الغفران: هي التي تمنح من يشتريها الغفران من الذنوب حسب إدعاء الكنيسة، ويتم منحها من قبل الكنيسة لمن يعترف بارتكاب الآثام، ويتوب عن خطاياها (جنبيير، 2008م).
- (10) جان كالفن: ولد كالفن في نيون الفرنسية، درس القانون حتى أصبح محاضراً لاهوتياً حيث دعا إلى إعادة السلطة إلى الكتاب المقدس الذي يمثل طريق الإنسان إلى الخلاص. من مؤلفاته "أسس الدين المسيحي" (Watchman, 1934).
- (11) محاكم التفتيش: في اللاتينية (Inquisitio Haereticae Pravitatis) وتعني التحقيق في بدع الهرطقة التي اعتبرت الكنيسة دخيلة على النظام الديني المسيحي القائم منذ عصور (جنبيير، 2008م).
- (12) الكاردينالات: الكاردينالات أو الكرادلة، ومفرداها كاردينال أو كرديل؛ وهم رجال دين برتبة اسقف يحصلون على هذا اللقب عندما يشتركون في انتخاب البابا أو يعملوا كمستشارين رئيسيين له. عندها يجوز لهم الاجتماع معه في الأماكن المغلقة "الخلوة" للبحث والتشاور، وينتهي لقبهم وحضورهم للخلوات بمجرد بلوغهم سن الثمانين (Schaff, 1893).
- (13) التقويم الغريغوري: هو نفسه التقويم الميلادي أو الغربي أو المسيحي (Daunou, 1838).
- (14) حركة التنوير أو الاستنارة: هي الفترة التي راجت فيها الأفكار الجدية التي تبحث في مفهوم الحق الطبيعي للبشر، وبعد القرن (17-18) هما القرنين الذين احتضنا عصر التنوير (Hertling, 1967).
- (15) معاهدة لاتيران: هي المعاهدة التي تم توقيعها بين مملكة إيطاليا والكرسي البابوي سنة 1929م، وتم بها منح البابوية دولته المستقلة داخل حدود الفاتيكان بزعامة البابا (Hertling, 1967).

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

..... (1986م)، إنجيل متى (الكتاب المقدس)، ط3، بيروت: دار المشرق. الإصحاح السادس عشر، الآية 18-19، ص 83.

ثانياً: المراجع العربية.

الزيات، ع، (2001م)، ماذا تعرف عن المسيحية، ط1، عمان: مركز الزاوية للنشر والتوزيع. ص 102-123، 150، 147.

سيد، أ، (2009م)، أصول التاريخ الأوربي الحديث، الطبعة الإلكترونية الأولى، الكويت: دار وانا للنشر الرقمي. ص 23-35.

عاشور، س، (1976م)، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، (د.ط.)، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر. ص 50، 147، 53، 117.

عمران، م، (1986م)، معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، (د.ط.)، بيروت: دار المعرفة الجامعية. ص 38-41، 159-160، 176-178.

ياكوبوس، أ، (2000م)، الآباء الرسل والعمل الكرازي، (د.ط.)، الرقازيق: مطبعة مطرانية الرقازيق ومنيا القمح للأقباط الأرثوذكس. ص 27، 28-29.

ثالثاً: المراجع الأجنبية المعربة.

جنبيير، ش، (2008م)، المسيحية نشأتها وتطورها، ط1، ترجمة عبد الحليم محمود، بيروت: منشورات المكتبة العصرية. ص 142، 216، 139-145.

دوسن، ك، (1967م)، تكوين أوروبا، (د.ط.)، ترجمة محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة: مؤسسة سجل العرب. ص 36-38.

فشر، ه، (1953م)، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ط3، القسم الأول، ترجمة محمد مصطفى زيادة والباز العريني، مصر: دار المعارف. ص 9-12، 14، 103-112، 110، 107، 231-233، 15-42، 233، 108-109، 107.

فشر، ه، (1957م)، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ط1، القسم الثاني، ترجمة محمد مصطفى زيادة، الباز العريني، وإبراهيم أحمد العدوي، مصر: دار المعارف. ص 282-293.

القيصري، ي، (1960م)، تاريخ الكنيسة، ط1، ترجمة القمص مرقس داود، القاهرة: مكتبة المحبة. ص 56-57.

رابعاً: الرسائل العلمية.

الشيخ، م، (1433-1434هـ)، البابوية عند النصرانية (دراسة عقديّة نقدية). بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراة غير منشور، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة. ص 3، 18.
الكردي، ن، (1432هـ/2011م)، الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر، رسالة ماجستير، قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية. ص 17-18.

خامساً: الأبحاث المنشورة في المجلات.

للحام، ك، (تموز 2008م)، "موقف الكنيسة الكاثوليكية من الإسلام بعد المجمع الفاتيكاني الثاني"، سلسلة ورقات طابة، أبو ظبي: مؤسسة طابة، العدد (2). ص 7، 15، 21.

سادساً: المراجع الأجنبية.

أ: المراجع باللغة الإنجليزية.

- Abulafia. D, McKitterick. R, Brett. M, Powell. E, Keynes. S, Shepard, J, Linehan. P, and Spufford. P, (2008), The New Cambridge Medieval History, 1st Published, Cambridge University Press, New York. P 653, 674, 64-67, 96-101.
- Alvarez, D. (2011), The Pope's Soldiers: A Military History of the Modern Vatican, University Press of Kansas, Kansas. P 24-26, 44-45, 105-108.
- Cohen, S. (2014), Authority and the Bishops of Rome in the Fifth Century: Leo I (440-461) and Gelasius (492-496), A thesis submitted in conformity with the requirements for the degree of Doctor of Philosophy, Department of History, University of Toronto, Toronto, Canada, 2014. P 24, 62.
- Cramp. J. (1923), POPERY: A Brief History of The Council of Trent, And A Complete View of Roman Catholic Theology, 3rd Edition, Houlston and Stoneman: BATERNOSTER ROW, University of Toronto, London, P 78-79, 245.
- Dark, S. (1923), The Story of The Renaissance, Hodder and Stoughton; s Peoples's Library LTD, London. P 44, 56, 98-103.
- Daunou, P. (1838), The Power of The Popes (An Historical Essay on Their Temporal Dominion, And The Abuse of Their Spiritual Authority. Tow Volumes in One, Translated by David Widger, Gutenberg.Org. p 22, 128-129, 157-162, 217.
- Gwatkin. H, Whitney, J. and Tanner. J, (1922) Previte-Orton. C. W, The Cambridge Medieval History (Germany And The Western Empire), The Machillan Company, New York. P 159-377, 497-495, 499.
- Pamphilus, E. (1890), Church History, Life of Constantine, Oration in Praise of Constantine, (Editor: Schaff, Philip), Christian Literature Publishing Co, New York, 1890. P 619-621, 706, 685, 799, 202.
- Prokurat. M. (1996), Golitzin. Alexander, and Peterson. Michael D, Historical Dictionary of the Orthodox Church, Scarecrow Press, Inc. Lanham, MD & London, 1996. P 72-73, 81.
- Schaff, Ph. (1893), History of Christian Church, 8 Volumes, Charles Scribner. Edinburgh, New York. P 404, 421. 434-437, 83-84, 489, 493, 499, 502, 507.
- Stark, R. (2011), The Triumph of Christianity. (How The JESUS Movement Became the World's Largest Religion), 1st Edition, Harper Collins Publishers Inc, New York. P 157-158, 169.
- Stilwell, G. (2004), Christianity, 5000 Years of History and Development, Ph.D. iUniverse, Inc Published. P 223, 154.
- Ullmann, W. (2010), The Growth of Papal Government in the Middle Ages (A Study in the Ideological Relation of Clerical to lay Power), 4th Published, Routledge Library Editions, New York. P 255-256.
- Watchman. (1934), History of Popery (Origin, Progress, Doctrines, Practice, Institutions, and Fruits to the Commencement of Nineteenth Century, John P. Haven Published, New York. P 25-26, 30, 7-8, 283.

ب: المراجع باللغة الإيطالية.

- Baus. K, and Jedin. H. (1972), Storia Della Chiesa 'EDITTO DI MILANO (Costantino), Vol I, Jaka Book, Milano. P 4, 11.
- Gusta, F. (2008), (Per Giovanni Tomassini, Stampator Vescovile, 1786), Vita Di Costantino Il Grande "Primo Imperador Cristiano: Con L'Aggiunta Di Un Esame Critico Sopra Diversi Punti Pi Principali Di Questa Parte Di Stori Ed Una Vera Idea Della Chiesa In Quell'Epoca", Due Parti, Università di Princeton, Fuligno. P 85-86, 82.

- Hertling, L and Bulla A. (1967), Storia delle Chiese, Edizione Riveduta, Aggiornata e ampliata Premessa di Luigi Mezzadri, Citta Nuova, Berlin.
- Smith, J. (1993), Storia Della Chiesa Nella Pienezza Dei Tempi (Storia della Chiesa di Gesù Cristo dei Santi degli Ultimi Giorni), Corporation of the President of The Church of Jesus Christ of Latter-day Saints, France, Edizione Riveduta. P 227, 249, 422, 412-413.
- Valla, L. (1994), La Falsa Donazione Di Costantino, Introduzione, Traduzione E Note Di Olga Puguese, BUR Biblioteca Univ Rizzoli (Collana Classici), Florence. P (A→Z).

The Emergence of the Papacy

*Ahmad Turki Alshrideh**

ABSTRACT

This study aimed at searching the history of Papacy root's, its factors and origination since the arrival of Christianity in the first century (AD), until it reached to its prominent place in the 14th century. It clarified the managerial development, which occurred on "Klerk" pending to the customary form. That occurred after the simulation of the common Roman System. Also, it showed the main reasons of dividing the Roman Church into Eastern Orthodox Church and Western Catholic Church. The study turned to the main conflicts, That were standing between Papacy, Emperors and king's. In other way, it mentions the situation of papacy following its departure to the French city of "Avignon" since the Papal Captivity in (1305-1377) up to the Western Schism or Papal Schism of the Roman Catholic Church in (1378-1417). The situation of Papacy have been discussed from The Renaissance, up to the movement of religions reform passing the French Revolution (1789) and ending with "Lateran Treaty" between Italy and The Pop. This Pact led Papacy to establish its own country "Vatican City State" (Stato della Città del Vaticano) in the heart of Rome. Finally, the study mentioned the reasons that enabled Papacy to hold authority of the West European with mentioning the major Popes who established the religious root's. They've actually participated in the religious and political decisions.

Keywords: Papal, Christianity, Catholic, Western Church.

* The University of Jordan. Received on 28/9/2016 and Accepted for Publication on 21/1/2017.